

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ سَمِعَهُ وَعَلَى اللَّهِ وَسَبِّهِ أَجْمَعُونَ

وسائل الثبات على دين الله

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعود بالله من شرور أنفسنا وسیئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .
أما بعد :

فإن الثبات على دين الله مطلب أساسى لكل مسلم صادق يريد سلوك الصراط المستقيم بعزيمة ورشد .
وتكمّن أهمية الموضوع في أمور منها :

- وضع المجتمعات الحالية التي يعيش فيها المسلمون ، وأنواع الفتن والمعويات التي بنارها يكتونون ، وأصناف الشهوات والشبهات التي بسببها أضحي الدين غريباً ، فثال المتمسكون به مثلاً عجياً (القابض على دينه كالقابض على الجمر) .

ولا شك عند ذي لب أن حاجة المسلم اليوم لوسائل الثبات أعظم من حاجة أخيه أيام السلف ، والجهاد المطلوب لتحقيقه أكبر : لفساد الزمان ، وندرة الأخوان ، وضعف المعين ، وقلة الناصر .

- كثرت حوادث الردة والنكوص على الأعقاب ، والانتكاسات حتى بين بعض العاملين للإسلام مما يحمل المسلم على الخوف من أمثل تلك المصائر ، ويتمسّس وسائل الثبات للوصول إلى بِرِّ آمن .

- ارتباط الموضوع بالقلب ؛ الذي يقول النبي ﷺ في شأنه : (القلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمع غلياً) رواه أحمد 6/289 والحاكم 2/277 وهو في السلسلة الصحيحة 1772 .

ويضرب عليه الصلاة والسلام للقلب مثلاً آخر فيقول : (إنما سمي القلب من تقلبه ، إنما مثل القلب كمثل ريشة في أصل شجرة يقلبها الريح طهراً لبطن) (رواه أحمد 4/408 وهو في صحيح الجامع 2361 . فسبق الحديث قول الشاعر :

وما سمي الإنسان إلا لنسيانيه
ولا القلب إلا أنه يتقلب

فتثبتت هذا المتقلب برياح الشهوات والشبهات أمر خطير يحتاج لوسائل جبارة تكافئ ضخامة المهمة وصعوبتها .

وسائل الثبات

ومن رحمة الله عز وجل بنا أن بين لنا في كتابه وعلى لسان نبيه وفي سيرته وسائل كثيرة للثبات . أاستعراض معك أيها القارئ الكريم بعضًا منها :

أولاً : الإقبال على القرآن

القرآن العظيم وسيلة الثبات الأولى ، وهو حبل الله المتيّن ، والنور المبين ، من تمسك به عصمه الله ، ومن اتبعه أنجاه الله ، ومن دعا إليه هُدُّى إلى صراط مستقيم .

نص الله على أن الغاية التي من أجلها أنزل هذا الكتاب منجماً مفصلاً هي التثبيت ، فقال تعالى في معرض الرد على شُبُّه الكفار : {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لَتُبَتَّ بِهِ فُؤَادُكُمْ وَرَتَّلَنَا تَرْتِيلًا} (32) ولَمْ يَأْتُونَكُمْ بِمِثْلٍ إِلَّا جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} (33) الفرقان

لماذا كان القرآن مصدرًا للثبات ؟؟

* لأنَّه يزرع الإيمان ويزكي النفس بالصلة بالله .

* لأن تلك الآيات تننزل برداً وسلاماً على قلب المؤمن فلا تعصف به رياح الفتنة ، ويطمئن قلبه بذكر الله .

- * لأنَّه يزودُ المُسْلِمَ بالتصوُراتِ والقيمِ الصحيحةِ التي يُسْتَطِعُ من خلالِها أنْ يُقْوِمَ الأوضاعَ من حولِه ، وكذا الموازينِ التي تهيئُ له الحُكْمَ على الأمورِ فلا يضطربُ حُكْمُه ، ولا تتناقضُ أقوالُه باختلافِ الأحداثِ والأشخاصِ .
- * آنَّه يردُ على الشبهاتِ التي يشيرُها أعداءُ الإسلامِ من الكُفَّارِ والمنافقينِ كالأُمَّةِ الْحَيَّةِ التي عاشَها الصدرُ الأوَّلُ ، وهذه نماذجٌ :

- 1- ما هو أثر قول الله عز وجل : (مَا وَدَعَكَ رَبَّكَ وَمَا قَلَى) (الصحي 3/ على نفس رسول الله ، لما قال المشركون : (وَدَعَ مُحَمَّدًا ...) (أنظر صحيح مسلم بشرح النووي 156/12).
- 2- وما هو أثر قول الله عز وجل : (لِسَانُ الدِّيْنِ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (التحل 103/ لما ادعى كفار قريش أنَّ مُحَمَّدًا إنما يعلمه بشر وأنه يأخذ القرآن عن نجار رومي بمكة؟
- 3- وما هو أثر قول الله عز وجل : (أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) (التوبية 49/ في نفوس المؤمنين لما قال المنافق : "اَئْذَنْ لِي وَلَا تُفْتَنْ" ؟)

أليس تثبيتاً على تثبيت ، وربطًا على القلوب المؤمنة ، ورداً على الشبهات ، وإسكاتاً لأهل الباطل .. ؟ بلى وربى . ومن العجب أن الله يعد المؤمنين في رحمة من الحديبية بغنائم كثيرة يأخذونها (وهي غنائم خير) وأنه سيجعلها لهم وأنهم سينطلقون إليها دون غيرهم وأن المنافقين سيطلبون مراقبتهم وأن المسلمين سيقولون لن تتبعونا وأنهم سيصرون يريدون أن يبدلو كلام الله وأنهم سيقولون للمؤمنين بل تحسدوننا وأن الله أجابهم بقوله: (بل كانوا لا يفقهون حديثاً) ثم يحدث هذا كله أمام المؤمنين مرحلة بمرحلة وخطوة بخطوة وكلمة بكلمة .

* ومن هنا نستطيع أن ندرك الفرق بين الذين ربطة حياتهم بالقرآن وأقبلوا عليه تلاوة وحفظاً وتفسيراً وتدبراً ، ومنه ينطلقون ، وإليه يفيئون ، وبين من جعلوا كلام البشر جل همم وشغلهم الشاغل .

* ويا ليت الذين يطلبون العلم يجعلون للقرآن وتفسيره نصيباً كبيراً من طلبهم .

ثانياً : التزام شرع الله والعمل الصالح :

قال الله تعالى : {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقُولِ الثَّابِتُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيَضْلِلُ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعُلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} إبراهيم 27.

قال قتادة : "أَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي ثَبِّتُهُمْ بِالْخَيْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَفِي الْآخِرَةِ فِي الْقَبْرِ" . وكذا روي عن غير واحد من السلف تفسير القرآن العظيم لابن كثير 421/3.

وقال سبحانه : {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبِّيتًا} النساء 66 . أي على الحق .

وهذا بين ، وإن فهل نتوقع ثباتاً من الكسالى القاعددين عن الأعمال الصالحة إذا أطلت الفتنة برأسها وادلهم الخطب؟! ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهدى لهم ربهم بإيمانهم صرطاً مستقيماً . ولذلك كان يثابر على الأعمال الصالحة ، وكان أحب العمل إليه أدومه وإن قل . وكان أصحابه إذا عملوا عملاً أثبوه . وكانت عائشة رضي الله عنها إذا عملت العمل لزمته .

وكان يقول : (من ثابر على اثنتي عشرة ركعة وجبت له الجنة) (سنن الترمذى 2/273 وقال : الحديث حسن أو صحيح . وهو في صحيح النسائي 1/388 وصحيح الترمذى 1/131 . أي السنن الروايات .

وفي الحديث القدسى : (ولا يزال عبد يقترب إلى بالنواقل حتى أحبه) رواه البخارى ، انظر فتح البارى 11/340 .

ثالثاً : تدبر قصص الأنبياء و دراستها للتأنسي والعمل :

والدليل على ذلك قوله تعالى : {وَكُلًا نَفْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا ثَبَّتَ بِهِ فُؤَادُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذَكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} هود 120 .

فما نزلت تلك الآيات على عهد رسول الله للتلهم والتغافل ، وإنما لعرض عظيم هو تثبيت فؤاد رسول الله وأفئدة المؤمنين معه .

* فلو تأملت يا أخي قول الله عز وجل : {قَالُوا حَرَقُوهُ وَانْصُرُوا أَهْلَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعْلَمْ}(68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرَدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسِرِينَ(70)} الأنبياء 68-70

قال ابن عباس: "كان آخر قول إبراهيم حين ألقى في النار: حسبي الله ونعم الوكيل" الفتح 8/22

ألا تشعر بمعنى من معاني الثبات أمام الطغيان والعقاب يدخل نفسك وأنت تتأمل هذه القصة؟

* لو تدبرت قول الله عز وجل في قصة موسى : {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمَعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}(61) قال كلا

إِنَّ مَعِيَ رَبِّيْ سَيِّهْدِينَ(62) }الشعراء .

ألا تحس بمعنى آخر من معاني الثبات عند ملاحة الطالبيين ، والثبات في لحظات الشدة وسط صرخات اليائسين وأنت تتدبر هذه القصة ؟ .

* لو استعرضت قصة سحرة فرعون ، ذلك المثل العجيب للثلة التي ثبتت على الحق بعدما تبين .

ألا ترى أن معنى عظيمًا من معاني الثبات يستقر في النفس أمام تهديدات الظالم وهو يقول : { قَالَ آمَّتُمْ لَهُ قُلْ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمْكُمُ السَّحْرَ فَلَلَا قُطِّعْنَ أَيْدِيْكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَلأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْمَانًا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى } [طه 71/72].

ثبات القلة المؤمنة الذي لا يشوبه أدنى تراجع وهم يقولون : { قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ فَاضِ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } طه 72 .

* وهكذا قصة المؤمن في سورة يس ومؤمن آل فرعون وأصحاب الأخدود وغيرها يكاد الثبات يكون أعظم دروسها قاطبة .

رابعاً : الدعاء

من صفات عباد الله المؤمنين أنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يثبتهم :
(ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) ، (ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا) .

ولما كانت (قلوب بني آدم كلها بين أصحاب الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء) رواه الإمام أحمد ومسلم عن ابن عمر مرفوعاً انظر مسلم بشرح النووي 16/204 .

كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) رواه الترمذى عن أنس مرفوعاً تحفة الأحوذى 349/6 وهو في صحيح الجامع 7864 .

خامساً : ذكر الله

وهو من أعظم أسباب التثبيت .

* تأمل في هذا الاقتران بين الأمرين في قوله عز وجل : { إِنَّمَا أَيْمَانَهُمْ أَمْنَوْا إِذَا لَقِيْتُمْ فَتَهَّبُتُوْا وَأَذْكُرُوْا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَكُمْ تُفْلِحُونَ } الأنفال 45/ . فجعله من أعظم ما يعين على الثبات في الجهاد .

"وتأمل أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها " ما بين القوسين مقتبس من كلام ابن القيم رحمة الله في الداء والدواء . بالرغم من قلة عدد وعدد الذاكرين الله كثيراً .

* وبماذا استعان يوسف عليه السلام في الثبات أمام فتنة المرأة ذات المنصب والجمال لما دعوه إلى نفسها ؟ ألم يدخل في حصن " معاذ الله " فتكسرت أمواج جنود الشهوات على أسوار حصنه ؟

وكذا تكون فاعلية الأذكار في تثبيت المؤمنين .

سادساً : الحرص على أن يسلك المسلم طريقاً صحيحاً

والطريق الوحيد الصحيح الذي يجب على كل مسلم سلوكه هو طريق أهل السنة والجماعة ، طريق الطائفة المنصورة والفرقة الناجية ، أهل العقيدة الصافية والمنهج السليم واتباع السنة والدليل ، والتميز عن أعداء الله ومحاصلة أهل الباطل ..

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تعرِفَ قِيمَةَ هَذَا فِي الثَّبَاتِ فَتَأْمِلْ وَسَائِلَ نَفْسِكَ :

لماذا ضلَّ كثير من السابقين واللاحقين وتحيروا ولم تثبت أقدامهم على الصراط المستقيم ولا ماتوا عليه ؟
أو وصلوا إليه بعدما انقضى جل عمرهم وأضاعوا أوقاتاً ثمينة من حياتهم ؟؟ .

فترى أحدهم يتنقل في منازل البدع والضلال من الفلسفة إلى علم الكلام والاعتزال إلى التحريف والتأويل إلى التفويض والإرجاء ، ومن طريقة في التصوف إلى أخرى ..

وهكذا أهل البدع يتحيرون ويضطربون ، وانظر كيف حرم أهل الكلام الثبات عند الممات فقال السلف : " أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام " لكن فكر وتدبّر هل رجع من أهل السنة والجماعة عن طريقه سخطه بعد إذ عرف وفقه وسلكه ؟ قد يتركه لأهواء وشهوات أو لشبهات عرضت لعقله الضعيف ، لكن لا يتركه لأنّه قد رأى أصح منه أو تبيّن له بطلانه .

ومصداق هذا مسألة هرقل لأبي سفيان عن أتباع محمد ؟ قال هرقل لأبي سفيان : " فهل يرتد أحد منهم سخطه لدنيه بعد أن يدخل فيه ؟ " قال أبو سفيان : لا . ثم قال هرقل : " وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب " رواه

البخاري ، الفتح 1/32 .

سمعنا كثيراً عن كبار تنقلوا في منازل البدع وآخرين هداهم الله فتركوا الباطل وانتقلوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة ساختين على مذاهبهم الأولى ، ولكن هل سمعنا العكس ؟!
فإن أردت الثبات فعليك بسبيل المؤمنين .

سابعاً : التربية

التربية الإيمانية العلمية الوعائية المتدربة عامل أساسى من عوامل الثبات .

التربية الإيمانية : التي تحىي القلب والضمير بالخوف والرجاء والمحبة ، المنافية للجفاف الناتج من البعد عن نصوص القرآن والسنة ، والعكوف على أقاويل الرجال .

التربية العلمية : القائمة على الدليل الصحيح المنافية للتقليد والأعمية الذمية .

التربية الوعائية : التي لا تعرف سبيل المجرمين وتدرس خطط أعداء الإسلام وتحيط بالواقع علمًا وبالأحداث فهمًا وتقويمًا ، المنافية للانغلق والتقوّق على البيئات الصغيرة المحدودة .

التربية المتدربة : التي تسير بالمسلم شيئاً فشيئاً ، ترتقي به في مدارج كماله بتخطيط موزون ، والمنافية للارتجال والتسرع والقفزات المحطمة .

ولكي ندرك أهمية هذا العنصر من عناصر الثبات ، فلنعد إلى سيرة رسول الله ونسائل أنفسنا .

- ما هو مصدر ثبات صحابة النبي في مكة ، إبان فترة الاضطهاد ؟

- كيف ثبت بلال وخباب ومصعب وآل ياسر وغيرهم من المستضعفين وحتى كبار الصحابة في حصار الشعب وغيره ؟

- هل يمكن أن يكون ثباتهم بغير تربية عميقه من مشكاة النبوة ، صقلت شخصياتهم ؟

*لأخذ رجلاً صحابياً مثل خباب بن الأرت رضي الله عنه ، الذي كانت مولاته تحمي أسياخ الحديد حتى تحرم ثم طرحة عليها عاري الظهر فلا يطفئها إلا ودك (أي الشحم) ظهره حين يسيل عليها ، ما الذي جعله يصبر على هذا كله ؟ .

* **بلال** تحت الصخرة في رمضان ، وسمية في الأغالل والسلال ..

* سؤال منيق من موقف آخر في العهد المدني ، من الذي ثبت مع النبي ﷺ في حنين لما انهزم أكثر المسلمين ؟ هل هم حديثوا العهد بالإسلام ومسلمة الفتح الذين لم يتربوا وقتاً كافياً في مدرسة النبوة والذين خرج كثير منهم طلباً

للغنائم ؟ كلا .. إن غالب من ثبت هم أولئك الصفة المؤمنة التي تلتقت قدرًا عظيماً من التربية على يد رسول الله ﷺ

لو لم تكن هناك تربية ترى هل كان سيثبت هؤلاء ؟

ثامناً : الثقة بالطريق

لا شك أنه كلما ازدادت الثقة بالطريق الذي يسلكه المسلم ، كان ثباته عليه أكبر .. ولهذا وسائل منها :

* استشعار أن الصراط المستقيم الذي تسلكه - يا أخي - ليس جديداً ولا ولد قرنك وزمانك ، وإنما هو طريق عتيق (عيق صفة مدح) قد سار فيه من قبلك الأنبياء والصديقون والعلماء والشهداء والصالحون ، فتزول غريتك ، وتتبدل وحشتك أنساً ، وكابتك فرحاً وسروراً ، لأنك تشعر بأن أولئك كلهم أخوة لك في الطريق والمنهج .

* الشعور بالاصطفاء ، قال الله عز وجل : (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرًا مَا يُشْرِكُونَ)
النمل 59 .

قال : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادَنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكُ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) فاطر 32 .

وقال : (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبْوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) يوسف 6 / .

وكما أن الله اصطفى الأنبياء فللصالحين نصيب من ذلك الاصطفاء وهو ما ورثوه من علوم الأنبياء .

* ماذا يكون شعورك لو أن الله خلقك جماداً ، أو دابة ، أو كافراً ملحداً ، أو داعياً إلى بدعة ، أو فاسقاً ، أو مسلماً غير داعية لإسلامه ، أو داعية في طريق متعدد الأخطاء ؟

* ألا ترى أن شعورك باصطفاء الله لك وأن جعلك داعية من أهل السنة والجماعة من عوامل ثباتك على منهجك وطريقك؟

تاسعاً : ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل :

النفس إن لم تتحرك تأسن ، وإن لم تنطلق تعفن ، ومن أعظم مجالات انطلاق النفس : الدعوة إلى الله ، فهي وظيفة الرسل ، ومخلصة النفس من العذاب ؛ فيها تتفجر الطاقات ، وتنجز المهمات (فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت) . وليس يصح شيء يقال فيه "فلان لا يتقدم ولا يتاخر" فإن النفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية ، والإيمان يزيد وينقص .

والدعوة إلى المنهج الصحيح - ببذل الوقت ، وكذا الفكر ، وسعي الجسد ، وانطلاق اللسان ، بحيث تصبح الدعوة هم المسلم وشغله الشاغل - يقطع الطريق على محاولات الشيطان بالإضلال والفتنة .

زد على ذلك ما يحدث في نفس الداعية من الشعور بالتحدي تجاه العوائق ، والمعاندين ، وأهل الباطل ، وهو يسير في مشواره الدعوي ، فيرتقي إيمانه ، وتقوى أركانه .

فتكون الدعوة بالإضافة لما فيها من الأجر العظيم وسيلة من وسائل الثبات ، والحماية من التراجع والتقهقر ، لأن الذي يهاجم لا يحتاج للدفاع ، والله مع الدعاة يثبتهم ويحدد خطاهم والداعية كالطبيب يحارب المرض بخبرته وعلمه ، وبمحاربته في الآخرين فهو أبعد من غيره عن الوقوع فيه .

عاشرًا : الالتفاف حول العناصر المثبتة

تلك العناصر التي من صفاتها ما أخبرنا به عليه الصلاة والسلام : (إن من الناس ناساً مفاتيح للخير مغاليل للشر) حسن رواه ابن ماجة عن أنس مرفوعاً 237 وابن أبي عاصم في كتاب السنة 1/127 وانظر السلسلة الصحيحة 1332 .

البحث عن العلماء والصالحين والدعاة المؤمنين ، والالتفاف حولهم معين كبير على الثبات . وقد حدثت في التاريخ الإسلامي فتن ثبت الله فيها المسلمين برجال .

ومن ذلك : ما قاله علي بن المديني رحمة الله تعالى "أعز الله الدين بالصديق يوم الربدة ، وبأحمد يوم المحنة . " وتأمل ما قاله ابن القيم رحمة الله عن دور شيخه شيخ الإسلام في التثبيت : "وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساقت بنا الظنون ، وضاقت بنا الأرض أتيناها ، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله عنا ، وينقلب انشراحًا وقوه ويقيناً وطمأنينة ، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل ، وآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها" . الوابل الصيب ص 97 .

وهنا تبرز الأخوة الإسلامية كمصدر أساسي للتثبيت ، فإخوانك الصالحون والقدوات والمربيون هم العون لك في الطريق ، والركن الشديد الذي تأوي إليه فيثبتوك بما معهم من آيات الله والحكمة .. الزمهم وعش في أكتافهم وإياك والوحدة فتختطفك الشياطين فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

الحادي عشر : الثقة بنصر الله وأن المستقبل للإسلام

نحتاج إلى الثبات كثيراً عند تأخر النصر ، حتى لا تزل قدم بعد ثوبتها ، قال تعالى : (وَكَائِنٌ مِّنْ تَبَّىٰ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) آل عمران 148-146 . ولما أراد رسول الله ﷺ أن يثبت أصحابه المعدبين أخبرهم بأن المستقبل للإسلام في أوقات التعذيب والمحن فماذا قال؟

جاء في حديث خباب مرفوعاً عند البخاري : (وليُتُمَّنَ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّىٰ يُسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءِ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتِ مَا يَخَافُ اللَّهُ وَالذِّئْبُ عَلَىٰ غَنْمَهُ) رواه البخاري ، انظر فتح الباري 7/165 .

فعرض أحاديث البشارة بأن المستقبل للإسلام على الناشئة منهم في تربيتهم على الثبات .

الثاني عشر : معرفة حقيقة الباطل وعدم الاعترار به

في قول الله عز وجل : (لَا يَغْرِنَكَ تَقْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْلَّادِ) آل عمران 196 / تسرية عن المؤمنين وثبت لهم . وفي قوله عز وجل : (فَمَّا زَيَّدَ فَيَنْهَبُ جُفَاءً) الرعد 17 / عبرة لأولي الألباب في عدم الخوف من الباطل والاستسلام له .

ومن طريقة القرآن فضح أهل الباطل وتعريه أهدافهم ووسائلهم (وَكَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَتَسْتَيْنَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) الأنعام 55 / حتى لا يؤخذ المسلمون على حين غرة ، وحتى يعرفوا من أين يؤتى الإسلام .

وكم سمعنا ورأينا حركات تهاوت ودعاة زلت أقدامهم ففقدوا الثبات لما أنوا من حيث لم يحسبوا بسبب جهلهم بأعدائهم.

الثالث عشر: استجماع الأخلاق المعينة على الثبات

وعلى رأسها الصبر ، ففي حديث الصحيحين : (وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) رواه البخاري في كتاب الزكاة - باب الاستغفار عن المسألة ، ومسلم في كتاب الزكاة - باب فضل التغفف والصبر . وأشد الصبر عند الصدمة الأولى ، وإذا أصيـب المرء بما لم يتـوق تحـصل النـكـسة ويزـول الثـبات إـذا عدم الصـبر .

* تأمل فيما قاله ابن الجوزي رحمة الله : "رأيت كبيراً قارب الثمانين وكان يحافظ على الجماعة فمات ولد لابنته ، فقال : ما ينبغي لأحد أن يدعو ، فإنه ما يستجيب . ثم قال : إن الله تعالى يعاند مما يترك لنا ولداً " الثبات عند الممات لابن الجوزي ص 43 تعالي الله عن قوله علواً كبيراً .

- لما أصيب المسلمين في أحد لم يكونوا ليتوقعوا تلك المصيبة لأن الله وعدهم بالنصر ، فعلمهم الله بدرس شديد بالدماء والشهداء : (أَوْلَمَا أَصَابَتُكُم مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبَتْمُ مُنْتَهِيَّا قُلْتُمْ أَتَى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ (آل عمران 165 / ماذا حصل من عند أنفسهم ؟

فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا .

الرابع عشر : وصية الرجل الصالح

عندما يتعرض المسلم لفتنة ويتليه ربه ليمحصه ، يكون من عوامل الثبات أن يقيض الله له رجالاً صالحأً يعظه ويشتبه ، ف تكون كلمات ينفع الله بها ، ويحدد الخطى ، وتكون هذه الكلمات مشحونة بالتدكير بالله ، ولقاءه ، وجنته ، وناره

وهك أخى ، هذه الأمثلة من سيرة الإمام أحمد رحمة الله ، الذى دخل المحن ليخرج ذهباً نقياً .

لقد سيق إلى المؤمن مقيداً بالأغلال ، وقد توعده وعideaً شديداً قبل أن يصل إليه ، حتى لقد قال خادم للإمام أَحمد : (يعز علي يا أبا عبد الله ، أن المؤمن قد سُل سيفاً لم يسله قبل ذلك ، وأنه يقسم بقرباته من رسول الله ﷺ ، لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف) البداية والنهاية 1/332 .

وهنا ينتهز الأذكياء من أهل البصيرة الفرصة ليلقوا إلى إمامهم بكلمات التثبيت؛ ففي السير للذهبي 11/238 عن أبي جعفر الأنباري قال: "لما حُملَ أَحْمَدُ إِلَى الْمَأْمُونِ أَخْبَرَتْهُ فَعْرَةُ الْفَرَاتِ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْخَانِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ".

فقال : يا أبا جعفر تعنيت .

فقلت : يا هذا ، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك ، فو الله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجبن خلق ، وإن لم تُجب
ليمتنع خلق من الناس كثير ، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك ، فإنك تموت ، لا بد من الموت ، فاتق الله ولا تجب
ـ . فجعل أحمد يبكي ويقول : ما شاء الله . ثم قال : يا أبو جعفر أعد ..

و قال الإمام أحمد في سياق رحلته إلى المأمون : " صرنا إلى الرحبة منها في جوف الليل ، فعرض لنا رجل فقال : أكـ أـ حـ اـ بـ حـ اـ زـ اـ " فأعدت عليه وهو يقول : ما شاء الله ... إـهـ "

فقيل له : هذا . فقال للجمال : على رسلك .. ثم قال : " يا هذا ، ما عليك أن تُقتل ها هنا ، وتدخل الجنة " ثم قال : أستد دعك الله ، ومضه .

فَسَأَلَتْ عَنْهُ ، فَقَيْلَ لِي هَذَا رَجُلٌ مِّنَ الْعَرَبِ مِنْ رَبِيعَةِ يَعْمَلُ الصَّوْفَ فِي الْبَادِيَةِ يُقَالُ لَهُ : جَابِرُ بْنُ عَامِرٍ يُذَكَّرُ بِخِيرٍ " سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ 11/241 .

وفي البداية والنهاية : أن أعرابي قال للإمام أحمد : " يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤماً عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجبيهم إلى ما يدعونك إليه ، فيجيروا فتحمل أوزارهم يوم القيمة ، وإن كنت تحب الله ، فاصبر على ما أنت فيه ، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل ".

قال الإمام أحمد : وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع عن ذلك الذي يدعونني إليه . البداية والنهاية 1/332

وفي رواية أن الإمام أحمد قال : " ما سمعت كلمة وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة الأعرابي كلمني بها في رحبة طوق وهي بلدة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات ، قال : " يا أحمد إن يقتلك الحق مت شهيداً ، وإن عشت عشت

حميداً .. فقوى قلبي " سير أعلام النبلاء 11/241 .

ويقول الإمام أحمد عن مراقبة الشاب محمد بن نوح الذي صمد معه في الفتنة : ما رأيت أحداً - على حداثة سنها ، وقدر علمه - أقوم بأمر الله من محمد بن نوح ، إنني لا أرجو أن يكون قد ختم له بخير .

قال لي ذات يوم : " يا أبا عبد الله ، الله الله ، إنك لست مثلي ، أنت رجل يقتدي بك ، قد مد الخلق أعناقهم إليك ، لما يكون منك ، فاتق الله ، وثبت لأمر الله . فماتت وصليت عليه ودفنته . سير أعلام النبلاء 11/242 .

وحتى أهل السجن الذين كان يصلى بهم الإمام أحمد وهو مقيد ، قد ساهموا في تثبيته .

فقد قال الإمام أحمد مرة في الحبس : " لست أبالي بالحبس - ما هو ومنزلي إلا واحد - ولا قتلاً بالسيف ، وإنما أخاف فتنة السوط "

فسمعه بعض أهل الحبس فقال : " لا عليك يا أبا عبد الله ، فما هو إلا سلطان ، ثم لا تدرى أين يقع الباقي " فكانه سري عنه . سير أعلام النبلاء 11/240 .

فاحرص أيها الأخ الكريم على طلب الوصية من الصالحين : وأعقلها إذا تلقيت عليك .

- اطلبها قبل سفر إذا خشيت مما قد يقع فيه .

- اطلبها أثناء ابتلاء ، أو قبل محن متوقعة .

- اطلبها إذا عيئت في منصب أو ورثت مالاً وغنى .

وثبت نفسك ، وثبت غيرك والله ولهم المؤمنين .

الخامس عشر : التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار وتذكر الموت :

والجنة بلاد الأفراح ، وسلوة الأحزان ، ومحظ رحال المؤمنين والنفس مفطورة على عدم التضحية والعمل والثبات إلا بمقابل يهون عليها الصعاب ، ويدلل لها ما في الطريق من عقبات ومشاق .

فالذي يعلم الأجر تهون عليه مشقة العمل ، وهو يسير ويعلم بأنه إذا لم يثبت فستفوته جنة عرضها السموات والأرض ، ثم إن النفس تحتاج إلى ما يرفعها من الطين الأرضي ويجدبها إلى العالم العلوي .

وكان النبي ﷺ يستخدم ذكر الجنة في تثبيت أصحابه ، ففي الحديث الصحيح من رسول الله ﷺ بياسر وعمار وأم عمار وهم يؤذن في الله تعالى فقال لهم : (صبراً آل ياسر صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة) رواه الحاكم 3/383 ، وهو حديث حسن صحيح ، انظر تخریجه في فقه السيرة تحقيق الألباني ص 301 .

وكذلك كان ﷺ يقول للأنصار : (إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض) متفق عليه .

وكذلك من تأمل حال الفريقين في القبر ، والحضر ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، وسائر منازل الآخرة .

كما أن تذكر الموت يحمي المسلم من التردي ، ويوقفه عند حدود الله فلا يتعداها . لأنه إذا علم أن الموت أدنى من شراك نعله ، وأن ساعته قد تكون بعد لحظات ، فكيف تسول له نفسه أن ينزل ، أو يتمادي في الانحراف ، ولأجل هذا قال ﷺ : أكثروا من ذكر هادم الذات (رواه الترمذى 50/2 وصححه في ارواء الغليل 145/3) .

مواطن الثبات

وهي كثيرة تحتاج إلى تفصيل ، نكتفي بسرد بعضها على وجه الإجمال في هذا المقام :

أولاً : الثبات في الفتنة :

التقلبات التي تصيب القلوب سببها الفتنة ، فإذا تعرض القلب لفتنة النساء والضراء فلا يثبت إلا أصحاب البصيرة الذين عمر الإيمان قلوبهم .

ومن أنواع الفتنة :

* فتنة المال) : فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخْلُواْ بِهِ وَتَوَلَّوْاْ وَهُمْ مُعْرَضُونَ (76) فَاعْقَبَهُمْ نَفَّاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْدِبُونَ (77) (التوبة

* فتنة الجاه) : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبِّهِمْ بِالْعَدَاءِ وَالْعَشَّيِ بِرِيدُونَ وَجَهَهُ وَلَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبَهُ عَنْ ذَكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا (الكهف 28) .

وعن خطورة الفتنتين السابقتين قال ﷺ : ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرث الماء على المال والشرف لدينه (رواه الإمام أحمد في السندي 460/3 وهو في صحيح الجامع 5496) . والمعنى أن حرث الماء على المال والشرف أشد فساداً للدين من الذئبين الجائعين أرسلا في غنم .

* فتنة الزوجة :) إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم (التغابن 14 / .

* فتنة الأولاد :) الولد مجينة مبخلة محزنة (رواه أبو يعلى 305/2 وله شواهد ، وهو في صحيح الجامع 7037 .

* فتنة الأضطهاد والطغيان والظلم : ويمثلها أروع تمثيل قول الله عز وجل : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودَ (4) النَّارُ ذَاتُ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شَهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) البروج .

وروى البخاري عن خباب رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ⊗ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة ، فقال عليه السلام : (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحرف له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ، من دون لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه) رواه البخاري ، انظر فتح الباري 12/315 .

* فتنة الدجال : وهي أعظم فتن المحييا : (يا أيها الناس إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله آدم أعظم من فتنة الدجال .. يا عباد الله ، أيها الناس : فاثبتو إني سأصفع لكم صفة لم يصفها إياه قبلينبي ..) رواه ابن ماجه 7752 انظر صحيح الجامع 1359/2

وعن مراحل ثبات القلوب وزيفها أمام الفتنة يقول النبي ⊗ : (تُعرَضُ الْفَتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا . فَإِذَا قَلَبَ أَشْرِبَهَا نُكْتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَإِذَا قَلَبَ أَنْكَرَهَا نُكْتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَعُودَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٌ أَسْوَدٌ مِنْ يَادَادًا كَالْكُوْزِ مُجَخِّيًّا . لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ، وَقَلْبٌ أَبْيَضٌ لَا تَضْرُهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) رواه الإمام أحمد 386/5 ، ومسلم 128/1 والله لفظ له .

" معنى عرض الحصير : أي تؤثر الفتنة في القلب كتأثير الحصير في جنب النائم عليه . ومعنى مريداً : بياض شديد قد خالطه سواد ، مجخياً : أي مقلوباً منكساً "

ثانياً : الثبات في الجهاد :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فَتَةً فَاثْبِتُوْا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) الأنفال 45 / .

ومن الكبائر في ديننا الفرار من الزحف وكأن عليه الصلاة والسلام وهو يحمل التراب على ظهره في الخندق يردد مع المؤمنين : (وثبت الأقدام إن لاقينا) رواه البخاري في كتاب الغزوات ، باب غزوة الخندق انظر الفتح 399/7 .

ثالثاً : الثبات على المنهج

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) الأحزاب 23 / مبادئهم أغلى من أرواحهم ، إصرار لا يعرف التنازل .

رابعاً : الثبات عند الممات

أما أهل الكفر والفسق فإنهم يحرمون الثبات في أشد الأوقات كربة فلا يستطيعون التلفظ بالشهادة عند الموت ، وهذا من علامات سوء الخاتمة كما قيل لرجل عند موته : قل لا إله إلا الله يجعل يحرك رأسه يميناً وشمالاً يرفض قولها .

وآخر يقول عند موته : " هذه قطعة جيدة ، هذه مشتراها رخيص " ، وثالث يذكر أسماء قطع الشطرنج . ورابع يندنن بالحان أو كلمات أغنية ، أو ذكر معشوق .

ذلك لأن مثل هذه الأمور أشغلتهم عن ذكر الله في الدنيا .

وقد يرى من هؤلاء سواد وجه أو نتن رائحة ، أو صرف عن القبلة عند خروج أرواحهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما أهل الصلاح والستة فإن الله يوفهم للثبات عند الممات ، فينطقون بالشهادتين .

وقد يرى من هؤلاء تهمل وجه أو طيب رائحة نوع استبشران عند خروج أرواحهم .

وهذا مثال لواحد ممن وففهم الله للثبات في نازلة الموت ، إنه أبو زرعة الرazi أحد أئمة أهل الحديث وهذا سياق قصته :

قال أبو جعفر محمد بن علي ورآق أبي زرعة : حضرنا أبا زرعة بما شهران قرية من قرى الري وهو في السوق أي عند احتضاره وعنه أبو حاتم وابن واره والمنذر بن شاذان وغيرهم ، فذكروا حديث التلقين (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله) واستحبوا من أبي زرعة أن يلقنوه ، فقالوا تعالوا نذكر الحديث ، فقال ابن واره : حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن صالح ، وجعل يقول ابن أبي - ولم يجاوزه - فقال أبو حاتم : حدثنا بُنْدار حدثنا أبو عاصم ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ، لم يجاوز ، والباقيون سكتوا ، فقال أبو زرعة وهو في السوق " وفتح عينيه " حدثنا

بُنْدَار حَدَثَنَا أَبُو عَاصِم حَدَثَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ عَنْ صَالِحِ ابْنِ أَبِي غَرِيبٍ عَنْ كَثِيرِ بْنِ مَرَةَ عَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ) وَخَرَجَتْ رُوحُهُ رَحْمَةً اللَّهِ . سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ 13/76-85 .

ومثل هؤلاء قال الله فيهم : (إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَلَا تَحْزُنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فصلت 30 .
اللهم اجعلنا منهم ، اللهم إنا نسائلك الثبات في الأم والعزيزمة على الرشد ، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين .

كاتب المقالة : منقول
تاريخ النشر : 28/10/2010
من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفهاني
رابط الموقع : www.mohammdfarag.com